الفصل الأول

أسباب قيام الحركة الشعوبية

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول
أسباب قيام الحركة الشعوبية

■□■□

ويعد هذا التعريف العام بالبحث أتناول بالتوضيح مفهوم الشعوبية الذي بموجبه أدخلنا أشخاصًا ومواقف في نطاقه ، ولما كانت الشعوبية قد تمثلت في مظهرين يختلفان في الظاهر من حيث المنطلق والأسلوب فمن الضروري أن نقف على مفهوم هذه الشعوبية في كلا المظهرين .

« فالشعوبية الدينية » هي التي تتمثل في مواقف وآراء تظاهر أصحابها بالإسلام وعملوا على محاربته عن طريق التشويه والطعن ، ففرق الغلو التي تسترت بالإسلام بعيدًا عن مفهومها الحقيقي وفسرت المبادئ الإسلامية تفسيرًا غريبًا لا يتفق وطبيعتها تدخل في مفهوم الشعوبية الدينية .

والزندقة بكل صورها ـ الدهرية والثنوية وغيرها ـ التي بالإسلام تسترا وبالمجون والظرف إمعانًا في التستر واستهدفت محاربة الإسلام بوسائل مباشرة وغير مباشرة تدخل كذلك في مفهوم الشعوبية الدينية .

« والشعوبية العنصرية » حركة تتمثل من مجموعة الآراء والأشخاص والمواقف التي عبرت عن نظرة عنصرية أساسها تفضيل العناصر غير العربية على العرب عن طريق ذمهم والحط من حضارتهم والعمل على إزالة سلطانها إلى جانب الإشادة بحضارة الشعوب الأخرى وإعادة سلطانه على حساب العرب .

هذه محاولة أولية في معالجة أخطر حركة واجهت العرب بعد ظهور الإسلام ، لا أدعي بأني وفيتها حقها في البحث ووقفت على كل ما يتصل

بها من معلومات وأبحاث ، وكل ما أرجوه أن تكون هذه الدراسة خطوة في سبيل بحث هذه الحركة تعين من أراد تتبعها .

والله أسأل أن يوفقني للقيام بأبحاث أخرى أشمل دراسة وأعمق بحثًا في سبيل خدمة أمتنا وثقافتنا العربية .

أولاً : تأثير الحياة الدينية والسياسية في وعي الشعب :

إن قيام أية حركة لا يجيء مصادفة وإنما لكل حركة أسباب خاصة بها تؤدي إلى قيامها، والشعوبية من الحركات التي كانت وليدة أسباب كثيرة تفاعلت مع بعضها إثر ظهور الحركة الإسلامية ، وأهم تلك الأسباب الحضارة الإيرانية وما خلقته من إثارة الوعي في شعوبها ، والإسلام ودولته العربية واصطدامها مع الدولة الإيرانية فكانت الشعوبية نتاج هذا التصادم بين الحضارة الإيرانية والحضارة العربية .

لقد قامت في إيران دول متعاقبة يرجع تاريخها إلى ما قبل المسيح [1] - عليه السلام - واستمرت حتى ظهور الإسلام ، وكانت الدولة الإيرانية دولة منظمة يقوم نظامها على الإدارة المركزية ، فهناك الملك الذي يمثل السلطة الدينية والزمنية فهو ظل الله في الأرض [2] ولذلك كان الفرس يقدسون ملوكهم وكانت عبادة الملوك مشهورة عندهم » [3] وقد وضع الملوك فكرة الحلول من أجل إضفاء صفة التقديس لهم وأن « الشاهنشاه

(١) انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٢٩٣ الطبعة الحسينية ، والبيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ١٠٣ - ١٣٦ ، طبعة لايبزك سنة ١٩٢٣ م .

(2)Browne : Literary History of Persia, Vol. l, p . 130 .

(٣) فان فلوتن : السيادة العربية ، الترجمة العربية ص ٧٥ ، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٣٤ م ،

هو تجسيد روح الله التي تنتقل في أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء »[1] .

وهناك مناصب رئيس الوزراء ورئيس الموابذة وقائد الجيش وحكام الأقاليم المرازبة[2] .

وكان المجتمع الإيراني مجتمعًا طبقيًا فهناك الأشراف ورجال الدين ورجال الحرب والكتاب وعامة الشعب من زراع وصناع ومن بين هؤلاء جميعًا كان الدهاقون رؤساء القرى[3] .

وكانت الصلة بين الدين والدولة وثيقة في الحضارة الإيرانية وبخاصة في العهد الساساني[4] وكان لهذه العلاقة أثرها في الحركة العمرانية والثقافية من ناحية وفي مواجهة التحديات الخارجية المختلفة من ناحية أخرى .

لقد توسعت الدولة الإيرانية فشملت مناطق واسعة خارج حدود البلاد الإيرانية « حتى أن ملوك الأرض في فترات كانت تحمل إلى بهمن الملك الإتاوة »[5] وقد اصطدمت الدولة الإيرانية مع الدولة الرومانية فترات طويلة وأصبحت « مزاحمة قوية للدولة الرومانية في زمن الساسانيين واستولت برا وبحرًا على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم»[6] .

---

(١) فلهاوزن : الخوارج والشيعة ، الترجمة العربية ص ٢٤١ (مطبعة لجنة التأليف والنشر) القاهرة سنة ١٩٥٨ م . وسأشير إليه في الخوارج والشيعة وسأعتمد هذه الطبعة .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٤١٧ (مطبعة لجنة التأليف والنشر) القاهرة سنة ١٩٥٠م.

(٣) كتاب التاج المنسوب للجاحظ : ص ٢٥ ، المطبعة الأميرية القاهرة سنة ١٩١٢م الطبعة الأولى .

(٤) كريستنسن : إيران في عهد الساسانيين الترجمة العربية ص ١٣٠ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥٧م . وسأعتمد هذه الطبعة .

(٥) الطبري : ج٢ ص ٤ الطبعة الحسينية وهو بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب الذي تولى الحكم بعد وفاة الملك كشتاسب الذي ظهر زمن زرادشت . انظر مروج الذهب ج١ ص ١٤٣ .

(٦) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية الترجمة العربية ط ٣ دار المعارف القاهرة بلا تاريخ . وسأعتمد هذه الطبعة .

وكانت أرض السواد من المناطق التي سيطرت عليها الدولة الإيرانية فترة طويلة من الزمن كانت العلاقة فيها بين عرب العراق والدولة الإيرانية علاقة يشوبها الاختلاف والتنافر فهي علاقة الحاكم المستعمر بالشعب المستعمر وكان العرب يشعرون بثقل هذه السيطرة ويتطلعون إلى الخلاص منها لذلك استمرت المنازعات بين العرب والدولة الإيرانية ولا سيما في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام [١] .

وكان للديانات الإيرانية أثرها البعيد في حياة الشعب الإيراني ، فالمعتقدات الدينية قبل زرادشت والزرادشتية والمرقونية والديصانية والمانوية والمزدكية كلها ديانات ثنوية ، ولما كان التوحيد هو الركن الأساسي في العقيدة الإسلامية فإن اصطداما حادًا ومستمرًا وقع بين الثنوية الإيرانية والتوحيد الإسلامي لذلك يحسن أن نقدم صورة واضحة للديانات الإيرانية من حيث أثرها في نشر الوعي وإثارة التحدي الذي وجه إلى الإسلام .

في المصادر العربية إشارات صريحة إلى وجود ديانة عند الفرس قبل الزرادشتية لأن ظهور زرادشت في أيام الملك بشتاسف وقبوله الزرادشتية أثار غضب الفرس مما دفع عامله رستم إلى التعبير عن غضبهم قائلاً : « ترك دين آبائنا الذي توارثوه آخرًا عن أول وصبا إلى دين محدث» [٢] ولم يوضح الدينوري دين هؤلاء الآباء قبل بشتاسف ، كما أنه لم يبين الآراء والمعتقدات التي أثارت غضب الفرس وليس أدل على مدى تمسك الفرس بالمعتقدات القديمة فإنهم نهوا «الناس عن السيرة بشيء مما ابتدع زرادشت وقتلوا بشرًا كثيرًا ثبتوا عليها » [٣] ، ولم يشر الطبري بشيء إلى المعتقدات

(١) انظر الطبري ج ٢ ص ٧ ـ ٩٤ الطبعة الحسينية .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٥ ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مطبعة عيسى البابي ، القاهرة سنة ١٩٦٠م. وسأعتمد هذه الطبعة .

(٣) الطبري : ج١ ق ٢ ص ٨٩٤ ، طبعة ليدن . سنة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢م .

التي انتشرت قبل الزرادشتية ولم يوضح أسباب الحملة عليها . ويشير ابن الجوزي إلى وجود ديانات وأنبياء قبل زرادشت فيقول: « وكان أول ملوك المجوس كومرث فجاءهم بدينهم ثم تتابع مدعو النبوة عليهم حتى اشتهر بها زرادشت »[1] إلا أن ابن الجوزي لم يذكر شيئًا عن آراء «كومرث» كما لم يذكر أسماء الأنبياء الآخرين ولم يوضح آراءهم .

أما كريستنسين فيعتبر الديانة المترية هي الديانة السابقة للزرادشتية ويرى أنها كانت متأثرة كثيرًا بعلم النجوم الكلداني ، وعقيدتها ثنوية فيقول: « أن إلهي الخير والشر كانا أخوين توأمين وهما ولدا زوران الزمان اللامتناهي »[2] ويؤيد عباس العقاد كريستنسين من أن فكرة زوران متأثرة بالمعتقدات السامية إذ يقول : « أن زوران هذا صنو لإله البابليين نون أو القدر الذي يتسلط على الآلهة كما يتسلط على المخلوقات »[3] . ويذكر كريستنسين الخرافة الدينية المتعلقة بخلق الدنيا وظهور العقيدة الثنوية وهي: « أن زوران الإله الأقدم ظل يقدم القرابين زهاء ألف سنة لكي يكون له ولد يسميه أهورامزدا ولكنه في آخر الأمر أخذ يشك في فائدة ما قدم من قرابين وحينئذ ظهر ولدان في بطنه أحدهما « أهورامزدا» لأنه قدم القرابين والثاني « أهرمن» لأنه شك فيما يفعل »[4] فأهورامزدا إله الخير وأهرمن إله الشر وهكذا نشأت العقيدة الثنوية التي ظلت العلامة المميزة للديانات الإيرانية التالية والصفة المشتركة لها .

والزرادشتية نسبة إلى زرادشت ابن أسفيمان الذي ظهر أيام الملك بشتاسف وادعى النبوة ووضع أسس الديانة الزرادشتية[5] في كتاب

(١) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٧٣ ، مطبعة المنيرية القاهرة ١٣٤٧هـ . وسأعتمد هذه الطبعة .

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ٢٢ .

(٣) العقاد : كتاب الله ص ٧٨ ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة بلا تاريخ .

(٤) إيران في عهد الساسانيين ص ٢٢ .

(٥) الطبري ج١ ص ٢٩٣ الطبعة الحسينية . المسعودي - مروج ج ١ ص ١٤٢ .

الأفستا الذي في يد المجوس »[1] .

لقد أمن الملك بشتاسف بما جاء به زرادشت ولم يعبأ بغضب الفرس مما شجع المواطنين على الإيمان بهذه الديانة وقد تزايد عدد المعتنقين لها تدريجيًا وثبتوا عليها ولم ينتهوا عنها[2] حتى أصبحت الزرادشتية هي الديانة السائدة وأصبح « الفرس يدينون بما أورده زرادشت في المجوسية»[3] ، وأمست الزرادشتية الديانة الرسمية أيام الساسانيين واستمرت حتى الفتح الإسلامي[4] .

والزرادشتية من الديانات الثنوية « أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر... ويسمون أحدهما النور والثاني الظلمة »[5] .

وفي المجال الاجتماعي كانت الزرادشتية « يستحلون زواج الأمهات وقالوا الابن أحرى بتسكين شهوة أمه وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة»[6] ويؤيد بارتولد ما ذهب إليه ابن الجوزي بقوله: أن الزرادشتية « أباحت زواج الأب من البنت والإبن من الأم والأخ من الأخت »[7] ولم أجد ما يؤيد ابن الجوزي وبارتولد في المصادر التي رجعت إليها ولعلهما يخلطان بين الزرادشتية والمزدكية .

---

(١) انظر الأخبار الطوال ص ٢٥ و Browen, Vol . I . p . 96 .

(٢) الطبري : ج ١ ق ٢ ص ٨٩٤ طبعة ليدن ١٨٨١ - ١٨٨٢م .

(٣) البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ٢٠٧ طبعة لايبزك سنة ١٩٢٣م وسأشير له : الآثار الباقية ، وسأعتمد هذه الطبعة في الصفحات القادمة .

(٤) إيران في عهد الساسانيين ص ١٣٠ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل ج٢ ص ٧٢ - ٧٣ المطبعة الأدبية القاهرة سن ١٣٢٠ هـ . وسأشير له : الملل والنحل وسأعتمد هذه الطبعة . الطبعة الأولى .

(٦) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٧٣ .

(٧) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٩٥ ط ٣ .

والمرقونية تنسب إلى مرقيون الذي وضع أسسها [١] ، وعقيدتها ثنوية كغيرها من الديانات الإيرانية [٢] ، وتختلف المرقونية عن الزرادشتية بوجود الكون الثالث فقد « زعمت أن الأصلين القديمين النور والظلمة وأن ههنا كونًا ثالثًا مزجها وخالفها » [٣] ولم يوضح ابن النديم ولا ابن حزم كيف حدث الكون الثالث كما أنهما لم يوضحا طبيعة هذا ويقول الشهرستاني: « المرقونية أثبتوا أصلين قديمين متضادين أحدهما النور والآخر الظلمة وأثبتوا أصلاً ثالثًا هو المعدل الجامع وهو سبب المزاج » [٤] وكذلك يذكر الشهرستاني أسباب وجود الكون الثالث على حد تعبير المرقونية «وقالوا وإنما أثبتنا المعدل ؛ لأن النور هو الله تعالى لا يجوز عليه مخالطة الشيطان وأيضًا فإن القديمين يتنافران طبعًا ويتمانعان ذاتا ونفسًا فكيف يجوز اجتماعهما وامتزاجهما فلابد من معدل يكون منزلته دون النور وفوق الظلام فيرفع المزاج معه » [٥] .

والعقيدة المرقونية متأثرة بالزرادشتية والمسيحية وذلك « لأن مرقيون وابن ديصان سمعا كلام عيسى وأخذا منه إلى جانب أخذهما من الزرادشتية » [٦] .

وأما الديصانية فإنها تنسب إلى ابن ديصان [٧] الذي وضع مبادئها

(١) المسعودي : مروج الذهب ج١ ص ٢٠٠ طبعة باريس ، ١٨٦١م .

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٨٩ ، دار الصاوي للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٣٨م .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٤٨٨ مطبعة الاستقامة القاهرة بلا تاريخ وسأشير إليه : الفهرست وهي الطبعة التي سأعتمد عليها .

وابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج١ ص ٣٥ ، ٣٦ القاهرة المطبعة الأدبية سنة ١٣١٧ هـ الطبعة الأولى وسأشير إليه : الفصل في الملل وهي الطبعة التي سأعتمد عليها .

(٤) الملل والنحل ج١ ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٦) البيروني : الآثار الباقية ص ٢٠٧ .

(٧) ابن النديم : الفهرست ص ٤٨٨ .

وسمى بذلك لأنه ولد على نهر يقال له ديصان وإليه أضيفت الديصانية[1] .

والديصانية من الديانات الثنوية ، فقد ادعى ابن ديصان « أن النور خالق الخير والظلمة خالقة الشر ... وأن النور حي حساس والظلمة موات» [2] إلا أن ابن ديصان لم يوضح كيف أن الظلمة الموات خلقت الشر.

وذهب ابن ديصان إلى ما ذهبت إليه المرقونية من وجود عالم ثالث فقال: « أن الكونين النوري والظلامي قديمان ومعهما شيء قديم ثالث لم يزل خلافهما وخارجا عن خارجيهما وهو الذي حمل الكونين على المشابكة والامتزاج ولولا ذلك المعدل بينهما لما كان في جوهرهما إلا التباين والتنافر»[3] وعلى هذا فإن الديصانية قالت بوجود ثلاثة عوالم ولم تحتج إلى وضع تفسير لكيفية وجود العالم الثالث واعتبرت مهمته الفصل بين عالم النور وعالم الظلمة فقط .

وقد وضع ابن ديصان عدة مؤلفات منها « كتاب النور والظلمة ، وكتاب روحانية الحق ، وكتاب المتحرك والجماد وله كتب كثيرة » [4] ، ولم نقف على أي من هذه الكتب ولعلها فقدت ، ولاشك أنها قد لعبت دورًا في تثبيت العقيدة الثنوية ، وابن ديصان أول من مهد لفكرة الحلول حيث أنه «زعم ... أن نور الله قد حل قلبه » [5] .

والمانوية: هي الديانة التي وضع أسسها «ماني» بن فتق بن بابك بن أبي

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج١ ص ٢٠٠ طبعة باريس .

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٨٩ .

(٣) المقدسي : البدء والتاريخ ج ١ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، باعتناء كلمان هوار باريس سنة ١٨٩٩ م . وسأعتمد هذه الطبعة. وهو لأبي زيد البلخي .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٤٨٨ .

(٥) البيروني : الأثار الباقية ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

برزام »[1] وهو « فارسي أظهر دين المنانية وزعم أنه نبي »[2] ، وكان ظهور ماني زمن الملك سابور بن أردشير الذي تولي الملك[3] سنة ٢٤٢م .

ولقد تأثر ماني بالزرادشتية والمسيحية والديصانية فقد « أخذ من ابن ديصان مذهبه وخالفه في المعدل »[4] ، ووضع دينًا بين المجوسية والنصرانية[5] ، وادعى النبوة « وأنه الفارقليط[6] وأنه خاتم النبيين »[7] .

وركز ماني العقيدة الثنوية فأكد أن العالم مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان ... ولم يزالا قوتين حساستين سميعين بصيرين[8] ، ولم يذهب ماني إلى ما ذهبت إليه المرقونية والديصانية من وجود عالم ثالث واكتفى بالقول « أن مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل عن الآخر ... وذلك الكون النير مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما »[9] .

وثبت ماني في ديانته فكرة الحلول التي أخذها من الهند حين نفي لبها ، كما يقول البيروني[10] ، ومن المحتمل أنه أخذها من ابن ديصان الذي

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٧٠ .

(٢) ابن البطريق : نظم الجوهر ص ١١١ ، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ، سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩

(٣) انظر إيران في عهد الساسانيين ص ١٦٩ . Browne vol. I, p . 154

(٤) الملل والنحل ج١ ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٥) المصدر السابق ج١ ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٦) الفارقليط: هو النبي الذي بشر به عيسى ـ عليه السلام ـ انظر الفهرست : ص ٤٧٢ .

(٧) البيروني : الآثار الباقية ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٨) الشهرستاني : انظر الملل والنحل ج١ ص ١٨٨ ، ١٩٠ ، والفهرست ص ٤٧٢، ٤٧٣ .

(٩) ابن النديم : الفهرست ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

(١٠) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص ٢٧ ، طبعة لا يبزك سنة ١٩٢٥ وسأشير إليه .

ادعى أن نور الله قد حل في قلبه كما ذكرنا ، وكذلك قال ماني بالتناسخ فزعم « أن النفوس لا تموت وأنها في الترديد منقلبة إلى شبه كل صورة هي لابسة ودابة قبلت فيها »[1] ، وفرق ماني بين تناسخ أرواح الصديقين وأرواح أهل الضلال ، ومن خلال هذه التفرقة نسف فكرة المعاد فقال: فأرواح الصديقين إذا فارقت أجسادها سرت في عمود الصبح إلى النور الذي فوق الفلك فبقيت في ذلك العالم على السرور الدائم ، وأرواح أهل الضلال إذا فارقت الأجساد وأرادت اللحوق بالنور الأعلى ردت منعكسة إلى الأسفل»[2] .

ومن معتقدات المانوية « أنهم لا يرون الذبيحة ولا يأكلون اللحم ولا شيئًا من الحيوانات »[3] ويحرمون من الماء الطهور ولا يقرون الغسل به[4] ، كما وضع ماني عبادات منها الصلاة على أوقات تبدأ الصلاة الأولى منها عند الزوال والثانية بين الزوال وغروب الشمس ثم صلاة المغرب بعد غروب الشمس ثم صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات ، وكذلك فرض مناي صيامًا أمده ستة وثلاثون يومًا[5] .

لقد اضطهد الملوك الساسانيون المانوية اضطهادًا شديدًا ، فإنه لما أظهر ماني ديانته في أيام الملك سابور طلبه فلم يظفر به[6] ، وعندما تولى هرمز ابن سابور الملك ألقى القبض على ماني وجمع عددًا كبيرًا من الناس وقال : هذا الرجل أعلن ضرورة قتل الناس لخلاص العالم ولهذا فمن الضروري

(١) البيروني : تحقيق ما للهند ص ٢٧ .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ص ١٦٢ ، تحقيق الكوثري ونشر عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٨ وسأشير إليه : الفرق بين الفرق ، وسأعتمد هذه الطبعة .

(٣) ابن البطريق : نظم الجوهر ص ١٤٦ .

(٤) انظر المصدر السابق ص ١٤٦ والطبري ج ١٠ ص ٤٣ الطبعة الحسينية .

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٤٨٠ .

(٦) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٤٩ .

أن أبدأ بقتله من أجل خلاص العالم منه فقتله وعلق جسده على باب مدينة جند سابور التي تعرف إلى الآن ببوابة ماني [١] .

وبرغم هذا الاضطهاد استمرت المانوية وتحولت إلى حركة سرية وبقيت كذلك في الفترة الإسلامية واستطاعت استقطاب عدد كبير من الفرس وكان لها أثر بعيد في تنشيط الحركة العلمية أبان القرن السابع الميلادي - القرن الأول الهجري حيث دونت آداب المانوية باللغة الإيرانية[٢]، ولم يقتصر نشاط المانوية على جهة واحدة بل شملت جهات مختلفة من البلاد الإيرانية حتى غدا لها تأثير بعيد في ازدهار الحضارة الإيرانية [٣] .

والمزدكية وضع أسسها مزدك الذي ظهر في أيام الملك قباذ [٤] بن فيروز وذلك في أواخر القرن الخامس الميلادي [٥] وهي من العقائد الثنوية « كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين»[٦] ، وتختلف المزدكية عن المانوية لأنها اعتبرت « النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى » [٧] وحرمت المزدكية كالمانوية أكل لحم الحيوان [٨] .

ولقد أحدثت المزدكية انقلابًا عنيفًا في النظام الاجتماعي الإيراني وذلك لأنها قالت : «أن الله إنما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم

---

(١) انظر : الأخبار الطوال ص ٤٩ والآثار الباقية ص ٢٠٧ و ٢٠٨ و Browne, Vol. I p. 158

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٨ .

(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٠ .

(٤) الطبري : ج ٢ ص ٨٨ . الطبعة الحسينية ، والفهرست ص ٤٩٣ .

(٥) كريستنسن : إيران في عهد الساسانيين ص ٣٢٠ .

(6) Browne, Vol I , pp . 166 – 171

(٧) الملل والنحل ج ١ ص ٨٦ .

(٨) المصدر السابق ج١ ص ٨٦ .

بالتآسي ... ودعت .. أنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى بها من غيره »[١] ، وأضاف ابن النديم[٢] أن مزدك دعا إلى « مشاركة في الحرم والأهل فلا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه » .

فقد أباح النساء لكل من شاء[٣] . والذي حدا مزدك إلى وضع هذه الآراء ما كان لاحظه من التباين بين الناس في الأموال والنساء والأمتعة[٤]، فدعا إلى مساواة بدائية بأن « تكون النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ »[٥] .

ولقد أخذ الملك قباذ بآراء مزدك وطبقها في السنوات العشر الأولى من ملكه[٦] ، ولا سيما ما يتعلق منها بالمشاركة في الأموال وكان يرمي من وراء ذلك إلى تحطيم نفوذ رجال الدين والنبلاء[٧] ، وقد أدرك هؤلاء خطورة هذه المبادئ فأعلنوا الثورة على قباذ وعزلوه عن العرش ونصبوا أخاه جاماسب مكانه[٨] ، وحبس قباذ ولكنه استطاع أن يفر من محبسه ويعود ثانية إلى الملك ، ولم يتنكر قباذ للمزدكية ولم يندفع في تطبيق مبادئها ويبدو أنه «تعهد أن يكون حذرًا وأكثر حيطة مع المزدكية »[٩] ولم يعدل قباذ عن المزدكية إلا بعد أن وقف على بطلان دعوة مزدك إثر مناقشة جرت بين

(١) الطبري : ج ٢ ص ٨٨ الطبعة الحسينية .

(٢) الفهرست ص ٤٩٣ .

(٣) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٧٣ .

(٤) إيران في عهد الساسانيين ص ٣٢٩ .

(٥) الملل والنحل ج١ ص ٨٦ .

(٦) الطبري : ج ٢ ص ٨٨ ، الطبعة الحسينية .

(٧) انظر إيران في عهد الساسانيين ص ٣٢١ ، وبروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية الترجمة العربية ج ١ ص ١٠٩ ، دار العلم للملايين ط ٣ بيروت سنة ١٩٦٠ .

(٨) إيران في عهد الساسانيين ص ٣٣٤ .

(٩) المصدر السابق ص ٣٣٤ .

مزدك والموبذ وفي ذلك يقول الفردوسي « فقال الموبذ لمزدك : أيها الرجل قد أتيت بدين جديد أبحت فيه النساء والأموال ويلزم في ذلك ألا يعرف الوالد ولده ولا الولد والده ... وإذ استووا فمن يتعين للرياسة ويترشح للسياسة ؟! وأخذوا في المناظرة والمباحثة حتى انقطع مزدك فرجع قباذ عن دينه »[1] وانتهت هذه المناظرة التي وقعت في سنة ٥٢٩ ميلادية بقتل عدد كبير من أنصار المزدكية على يد الجند فتحولت المزدكية « إلى جماعة سرية وعاشت على هذا النحو في أيام الدولة الساسانية ثم عادت إلى الظهور من جديد في العصور الإسلامية »[2] .

لقد وجدت الطبقة العامة في المزدكية متنفسًا فانتشر أتباعها بين هذه الطبقة وبهذا الصدد يقول الطبري « فافترض السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم »[3] وهذا يفسر الالتفاف الواسع للموالي حول الفرق الغالية التي قالت بالإباحية وفي هذا يقول فلها وزن «أن شيوعية الزوجات التي كان قد دعا إليها مزدك أحيتها الخرمية والراوندية »[4] فالخرمية التي ظهرت في دولة الإسلام هي لقب للمزدكية الذين أباحوا النساء والمحرمات ، وأحلوا كل محظور ، فسموا هؤلاء بهذا الاسم لمشابهتهم إياهم في نهاية المذهب وأن خالفوهم في مقدماته[5] .

كان لهذا كله أثره البعيد في إثارة الوعي في الشعب الإيراني الذي ظهر بمظهر التحدي ووقف من الإسلام والدولة العربية موقفًا يتسم

(١) الفردوسي : الشاهنامه ، الترجمة العربية ج٢ ص ١١٩ الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٥٠هـ ١٩٣٢م.

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٣) الطبري : ج٢ ص ٨٨ الطبعة الحسينية .

(٤) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ، الترجمة ص ٤٠٨ ، ترجمة يوسف العش . مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٦م .

(٥) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ١٠٢ .

obeikan.com

ولقد اعتبر القرآن الكريم الشرك أكبر الكبائر التي لا تغتفر فذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء :٤٨] ولقد نزل كثير من الآيات مؤكدة أهمية التوحيد ومعللة صحته حيث يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ويضيف جل شأنه : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، ويعلل الله سبحانه ضرورة مبدأ الوحدانية بقوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الإسراء : ٤٢ ، ٤٣] ، ونظرًا لانتشار العقيدة الثنوية وخطورة نشاطها كانت الآيات تنزل مهددة ومحذرة أصحاب هذه العقيدة : ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل :٥١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : ٣] ، وإلى جانب آيات التحذير آيات للترغيب : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠] ويكرر الله سبحانه وتعالى تحذيره : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وتطالب الآيات القرآنية أصحاب العقائد الثنوية وغيرهم إثبات قدرة آلهتهم : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الأحقاف:٤] وكذلك يؤكد سبحانه وتعالى قدرته ووحدانيته : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

هذه أمثلة من الآيات التي تكشف عن أهمية مبدأ التوحيد في الإسلام قد ذكرنا من قبل أن كل الديانات الإيرانية ثنوية لذلك نرى عقيدة التوحيد تصطدم بالعقيدة الثنوية اصطدامًا مباشرًا منذ بعث محمد ﷺ رسالته إلى

كسرى أبرويز يدعوه فيها إلى الإسلام وقد بقي هذا التصادم طوال عهد الدولة العربية وكانت الشعوبية من أهم نتائج التصادم .

القرآن واستغلال الشعوبية بعض آياته :

■ □ ■

القرآن الكريم دستور الحركة الإسلامية والمصدر الأول والأهم لها و«خاص وعام ومحكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ »[1] ولهذا اختلف المفسرون في تفسير آياته واستند إليه المتخاصمون في إثبات معتقداتهم والرد على خصومهم ، ولهذا نرى القرآن « يخاصم به المرجئ والقدري والزنديق»[2] ويرى نلينو « Nallino» « أن المسائل الكلامية في القرنين الأول والثاني للهجرة نشأت كلها تقريبًا عن اختلافات في تفسير الآيات فقرات وألفاظ وردت في القرآن »[3] .

وقد استغل الغلاة والزنادقة بعض آيات القرآن لدعم آرائهم وتثبيت معتقداتهم، ويبدو أن هؤلاء وأمثالهم كانوا قد ظهروا في حياة الرسول ﷺ أشار سبحانه وتعالى إليهم بقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧] .

---

(١) الكليني : أصول الكافي ج ٥ القسم الأول ١٢١ تحقيق عبد الحسين غافر ـ النجف ١٩٥٧م وسأعتمد هذه الطبعة .

(٢) المصدر السابق ج ٥ القسم الأول ص ٩ ـ ١٠ .

(٣) عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ٢٠١ ، مطبعة الاعتماد القاهرة سنة ١٩٤٠ .

ولما أراد المختار بن أبي عبيد الثقفي أن يبرر لأنصاره عدم تحقيق ما وعدهم به من نصر الله تعالى إياهم قال: « بالبداء » وادعى بأن الله قد وعده بالنصر فبدا له فعدل عن وعده ولم ينس المختار أن يدعم قوله هذا بآية من القرآن فادعى بأن الله قد وعده بالنصر إلا أنه قد عدل عن قراره وهذا جائز عند الله بدليل قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، وأن في قوله تعالى: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢].

ولما كانت العقائد الثنوية تقول بوجود الهين فإن أصحابها ظلوا يتلمسون آية يستغلونها في تفسير دعواهم وتبرير رأيهم فادعى أبو شاكر الديصاني أن في القرآن آية هي قولنا وهي: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، على أنه ليس ثمة علاقة بين عقيدة الثنوية وهذه الآية: « فإن الله ربنا في السماء إله وفي الأرض إله وفي البحار إله وفي القفار إله وفي كل مكان إله»[1] على حد تعبير الإمام الصادق (ع).

وتلمس الغلاة والزنادقة آيات من القرآن لتبرير قولهم بالحلول والتناسخ فادعوا أن في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩] وقوله جل شأنه: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] وقوله عز وجل: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] تأكيدًا لفكرة حلول والتناسخ وتبريرًا للقول بها وعلى هذا تكون روح آدم وروح عيسى جزءًا من روح الله[2] ومن ثم أحلوا روح الله في الأنبياء والأئمة.

---

(١) الكليني: أصول الكافي ج٢ ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٢) الكليني: أصول الكافي ج ٢ ص ١٨٥ الحاشية.

واستغل زنديق آخر قوله تعالى : ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٤] فجاء إلى الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق فسأله « فله رضا وسخط ؟ فقال أبو عبد الله (ع) نعم ولكن ليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين وذلك أن الرضا حال تدخل عليه فتنقله من حال إلى حال ، فرضاه ثوابه وسخطه عقابه »[1] وفي سؤال الزنديق وجواب الإمام أبي عبد الله الصادق تبين لنا أن هذا الزنديق كان يريد أن يقول أن الغضب حالة ينتقل إليها الله سبحانه وتعالى من أجل تشبيه الخالق عز وجل بالإنسان .

والدهرية الذين جحدوا الصانع المدبر وزعموا أن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه لا بصانع[2] ، هم الذين قال فيهم القرآن الكريم مصورًا بدعتهم : ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية : ٢٤] أرادت هي الأخرى أن تجد آية تدعم بها بدعتها فادعت أن في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ دعما لرأيها ، فقد حضر أحد هؤلاء الدهرية مجلس أبي الحسن الإمام علي عليه السلام فسأل عن ماهية الله « فقال : رحمك الله أوجدني كيف هو وأين هو فقال أبو الحسن : ويلك هل الذي ذهبت إليه غلط هو أين الأين بلا أين وكيف الكيف بلا كيف ، فلا يعرف بالكيفوفية ولا بالاينونية ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء فقال الرجل الزنديق فإذا أنه لا شيء إذا لم يدرك بحاسة من الحواس » .

وقد فسرت المشبهة والمجسمة آيات من القرآن وفقًا لهواها وبدعها ففسروا قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه : ٥][3] وقوله عز

(١) الكليني : أصول الكافي ج ٣ القسم الأول ص ١٣٧ .

(٢) الغزالي : فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ١٧٣ ، ط ١ ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي وشركاه ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م ، تحقيق سليمان نيا وسأشير له : فيصل التفرقة . وسأعتمد هذه الطبعة .

(٣) الكليني : أصول الكافي ج٣ القسم الأول ص ٢١، ٢٢ .

obeikan.com

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وقد تظاهر الشعوبيون بالتمسك بهذه الآية فترات طويلة من حركتهم وتستروا خلفها وكانوا يرددون معها قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] في كل مناسبة يفتخر بها العرب بمحمد باعتباره من العرب ويدعمون احتجاجهم هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وبقوله جل شأنه: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

من هذا يتبين لنا أن الشعوبية قد استغلت آيات القرآن استغلالاً موسعًا ووضعت آراءها ومعتقداتها على أساس تأويل تلك الآيات تأويلاً ..... وميولها السياسية ومعتقداتها الدينية وبذلك يمكن القول بأن الإسلام يلقى تحديًا وحقدًا لدى الشعوبيين كما آثار وعيهم وقدم مادة خصبة في النزاع بين الشعوبية والعروبة.

◆◆◆

الإسلام وقيام الدولة العربية:

□ ■ □

نزل القرآن الكريم على العرب وبلغتهم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] وكان نزوله على العرب يعني بالبداهة اصطفاء الله سبحانه وتعالى العرب من بين شعوبه لحمل الرسالة فقال عز من قائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

واختيار العرب لحمل الرسالة لم يقع اعتباطًا إنما يرجع إلى أن العرب كانوا على استعداد لقبول الرسالة وحملها والدفاع عنها فقال الله تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقد توجه الله سبحانه إلى العرب ليوضح أهميتهم ومسؤوليتهم في حمل أعباء الرسالة فقال مخاطبًا إياهم : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] كذلك أكد القرآن الكريم مسؤولية العرب بقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد : ٣٧] وقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف : ٤٤] وقوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأحقاف : ١٢] ويبدو أن هذا الاختيار قد أحدث رد فعل لدى الشعوب غير العربية فأخذت تبث شكوكها وتكشف عن استيائها فجاء جوابه تعالى إلى هؤلاء قاطعًا : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣] .

وقد أدرك الرسول ﷺ أهمية العرب في حمل الرسالة ، فقد روى الإمامان البخاري ومسلم عن ابن عمر أن النبي قال : « **ما زال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان ، وقريش من العرب وإذا هذا الأمر وقفا على قريش فهو وقف على العرب** » .

وكانت الإمامة موضع اختلاف بين المسلمين إلا أن معظم الفرق الكلامية عدا فرقة الخوارج وبعض المعتزلة أكدت حصرها في العرب وفي كل منهم ، وفي ذلك يقول الأشعري : « واختلفوا إذا اجتمع قرشي وأعجمي تساويا في الفضل أيهما أولى على مقالتين فقال ضرار بن عمرو:[1]

(١) ضرار بن عمرو كان تلميذًا لواصل بن العطاء انظر الفخر الرازي : شذرات المسلمين والمشركين . ص ٦٩ .

يولي الأعجمي لأنه أقلهما عشيرة وقال سائر الناس: يولي القرشي فهو أولى»[1] ، وقال أبو حنيفة : « لا تصلح الإمامة إلا في قريش وذلك للخبر الذي جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « الأئمة من قريش »[2] ويضيف السيوطي شروطًا على الإمامة في قريش فيقول : « الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا واسترحموا فرحموا »[3] . ويفلسف ابن خلدون ويخص الرسول هذا بقوله : « والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم وعمل اللحمة في قريش فهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم فلا يخشى من خلاف عليهم ولا فرقة ... فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب ... إن أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة»[4].

وقد أدرك محمد ﷺ أهمية العرب في حمل الرسالة فمنع استرقاق العربي وأعتق الأرقاء من العرب عند قيام الدولة الإسلامية وفي ذلك يقول ابن سلام :(فهذه أحكام الأساري المن والفداء والقتل وكانت هذه في العرب خاصة لأنه لا رق على رجالهم وبذلك مضت سنة رسول الله أنه لم يسترق أحدًا من ذكورهم وكذلك حكم عمر فيهم أيضًا)[5] .

وقد أدرك عمر بن الخطاب هذه الأهمية للعرب فكان يوصي: (ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تحجروها فتفتنوها ولا تفضلوا عنها

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ج ٢ ص ١٣٥ ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٣هـ وسأشير إليه : مقالات الإسلاميين ، وقد اعتمدت هذه الطبعة .

(٢) النويختي : فرق الشيعة ص ٣٠ تعليق محمد صادق بحر العلوم . النجف ١٩٣٦ م .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٩ ن تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٥٩ م الطبعة الثانية ، وسأشير إلى تاريخ الخلفاء معتمدًا هذه الطبعة .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٠ـ ٣٥١ ، مطبعة مطابع دار الطباعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٥٦ .

(٥) ابن سلام : كتاب الأموال ص ١٣٣ ، تصحيح محمد حامد الفقي ، مطبعة عبد اللطيف حجازي . القاهرة ، سنة ١٣٥٣هـ ، وسأشير إليه الأموال . وسأعتمد هذه الطبعة .

فتحرموها[1] ، وقد ذهب عمر ﷺ إلى أبعد من ذلك فقال : «أوصه بالأعراب فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام »[2] .

ولأهمية العرب في الحركة الإسلامية لم يقبل الرسول الجزية منهم فإما الإسلام وإما القتل وقد أوضح أبو يوسف هذه المسألة بقوله : (أو لا ترى أن العرب من عبدة الأوثان حكمهم القتل أو الإسلام ولا تقبل منهم الجزية وهذا خلاف الحكم في غيرهم فكذلك أرض العرب)[3] ، وقال الإمام أبو حنيفة : « لا أخذها من العرب لئلا يجري عليهم صغار »[4] وأضاف الماوردي : «فأخذها أبو حنيفة من عبدة الأوثان إذا كانوا عجمًا ولم يأخذها منهم إذا كانوا عربا »[5] .

ولما كانت اللغة أهم مقومات الأمة نجد الاهتمام بها واضحًا ملموسًا فالرسول الأكرم يقول : «رحم الله امرءًا أصلح من لسانه »[6] وقد أوصى عمر بن الخطاب بتعلم العربية فقال : « تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد المروءة »[7] وفي هذا المعنى قال الزهري : « ما أحدث الناس مروءة أحب إلى من تعلم النحو »[8] وكان الخطأ في اللغة يعتبر إثما يستوجب المغفرة فقد روي : « كان الحسن بن أبي الحسن يعثر لسانه بشيء في اللحن فيقول أستغفر الله »[9] ولم يقف الاهتمام باللغة العربية عند هذا الحد بل ذهبوا إلى أبعد من هذا حتى أنهم اعتبروها لغة الآخرة ورددوا قول الرسول ﷺ حين قال : « أحب العرب لثلاث: لأني عربي والقرآن عربي

(١) الطبري : ج١ ص ٢٧٤١ (طبعة دي غويه) .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ١٦ ، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٦هـ وسأعتمد هذه الطبعة .
(٣) السابق نفسه .
(٤) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ١٢٨ ، مطبعة البابي الحلبي ـ ١٣٥٧هـ وسأشير إليه : الأحكام السلطانية، وسأعتمد هذه الطبعة .
(٥) السابق نفسه .
(٦) ياقوت : معجم الأدباء ج١ ص ٦٧ مطبعة دار المأمون القاهرة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م .
(٧) ياقوت : معجم الأدباء ج١ ص ٦٨ مطبعة دار المأمون .
(٨) المصدر السابق ج١ ص ٧٨ .
(٩) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨ .

ولسان أهل الجنة عربي»[1] .

إن هذا التكامل بين العروبة والإسلام استمر في أيام الأمويين وأن تعريب الدواوين واعتبار العربية اللغة الرسمية في جميع المعاملات وسك النقود العربية ليدل على هذا التكامل [2] ، وقد تداخل الأمر بين العروبة والإسلام حتى أصبحت كلمة عربي تعني كلمة مسلم فقد اعتذر دهاقين من قلة الضرائب فكتبوا إلى الوالي أشرس يقولون له : « ممن تأخذ خراج وقد صار الناس كلهم عربًا » [3] أي أصبحوا مسلمين .

إلا أن هذا التداخل بين العروبة والإسلام قد اختل في أيام العباسيين حيث أننا نجد عددًا من هؤلاء الذين عرفوا بعدائهم للعرب كعلان الوراق وسهل بن هارون يتولون مناصب هامة ويشرفون على دار الحكمة في أيام هارون الرشيد والمأمون [4] .

إن هذا الترابط بين العروبة والإسلام الذي تؤيده بعض الآيات القرآنية وما أثر عن الرسول ﷺ قد أثار الثقة عند العرب وربما أثار الغرور عند بعضهم وكان لهذا الترابط أثره البعيد في إثارة الحسد والحقد في نفوس بعض الشعوب غير العربية وقد صور الجاحظ ذلك الحقد أبلغ تصوير في هذه العبارة (فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه ذلك من الشعوبية فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله وأن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف [5] .

---

(١) الألوسي : بلوغ الإرب ج ١ ص ١٦٦ ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة دار العلوم بغداد ١٣١٤هـ وسأعتمد هذه الطبعة .

(٢) انظر الأحكام السلطانية ص ٢٢٣ . وتراث فارس الترجمة العربية ٩٢ ـ ٩٤ ، وهو مقالات مترجمة لأساتذة مستشرقين بإشراف أربري وترجمة محمد كفافي وجماعته . مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة سنة ..... وسأعتمد هذه الطبعة .

(٣) الطبري : ج ٨ ص ١٩٦ الطبعة الحسينية .

(٤) انظر الفهرست ص ١٦٠ ، ١٨٠ .

(٥) الجاحظ : كتاب الحيوان ج٧ ص ٦٨ مطبعة السعادة ـ القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م تحقيق محمد بدر الدين النعماني الحلبي .

الدولة العربية ، ونشر الإسلام :

□ ■ □

لقد تولى العرب حمل الرسالة ونشرها وقد استجاب محمد ﷺ لنداء ربه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] فاتصل بقومه وعمل على إيجاد نواة لحركته واستطاع أن يدخل فريقًا منهم في حضيرة الإسلام وأعدهم إعدادًا خاصًا ليكونوا بناة الحركة الإسلامية وقادتها .

بدأ محمد ﷺ دعوته في مكة واستطاع أن يعد طليعة واعية هاجر بها إلى المدينة ودخل مع قريش معركة انتهت بنصر الحديبية الذي كان بداية الانطلاق لحمل الرسالة ونشرها في الحجاز وفي خارجه .

كان العراق في هذه المرحلة خاضعًا للنفوذ الإيراني ، ومصر وبلاد الشام وشمالي أفريقيا خاضعة للنفوذ الروماني ، فقرر الرسول تحرير هذه البلاد ونشر الإسلام فيها واتبع في ذلك أسلوبًا مسالمًا في دعوة حكامها فأرسل إليهم كتبًا يدعوهم فيها إلى الإسلام جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر والنجاشي أما بعد تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهد بأنا مسلمون » [(١)]
ولما وصل كتاب الرسول إلى كسرى غضب ومزق الكتاب ولم ينظر فيه ولم يقف الرسول على هذه الرسالة بل أرسل رسائل أخرى وضح فيها العلاقة بين المسلمين وما يحققه الدخول في الإسلام من حقوق وما يترتب عليه من واجبات ، فكتب إلى كسرى وإلى إمبراطور الروم كتبًا جاء فيها (من محمد رسول الله .. إني أدعوك إلى الإسلام فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم فإن لم تفعل فاعط الجزية) [(٢)] ولم يستجب الإمبراطور لهذه الدعوة كما لم يستجب كسرى إليها ولم يقف كسرى عند حد الرفض

(١) ابن سلام : الأموال ص ٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩ .

بل كتب إلى باذان على اليمن كتابا يقول فيه : « ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به » [1] وكان محمد مكلفًا بنشر الرسالة بالإقناع والحجة إذ كانت قاعدة الجهاد (أن يعرض المسلمون فكرة الدين على الناس عرضًا سليما فإن أجابوا دخلوا الإسلام وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فإن أبوا عرض المسلمون عليهم قبول الجزية فإن رضوا كانوا أهل ذمة ... فإن أبوا كان معنى هذا أنهم يفضلون إشهار السيف في وجه المسلمين) [2] فعلى المسلمين قتالهم التزامًا بقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] فأوفد المسلمون الوفود المبشرة والجيوش فتقدمت هذه الجيوش وحررت الوطن العربي من النفوذ الأجنبي ..... على دولتي الفرس والروم ، فتحررت الشام ومصر وشمالي أفريقيا من حكم الرومان ، وتحرر العراق وبلاد اليمن من حكم الفرس ، وتقدمت الجيوش العربية تحمل رسالة الإسلام حتى وصلت إلى حدود الصين شرقًا وإلى آسيا الصغرى شمالاً وإلى أوروبا غربًا .

ولقد أحدث انتصار الدولة العربية هذا رد فعل لدى الشعوب المغلوبة وكان رد هذا الفعل يتناسب طرديًا مع وعي تلك الشعوب ولهذا نجد هذا التحدي لدى الشعب الإيراني قويًا لأن «إيران كانت في سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في نفسها بحيث كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد وكانوا يعدون سائر الناس عبيدًا لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ... تعاظم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ورامو كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى » [3] ، ويؤيد « فان فلوتن» المقريزي فيما ذهب إليه فيقول : « لم تكن المسألة مسألة دين انتشر وبسط

(١) الطبري : ج٣ ص ٩٠ الطبعة الحسينية والمسعودي : التنبيه ص ٢٢٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في أفريقيا ص ٤٠ ط ٢ القاهرة ١٩٦٤ .

(٣) المقريزي : كتاب الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من أخبار ج ٢ ص ٣٦١ طبعة بولاق ١٣٢٤ ـ ١٣٢٦هـ وسأشير إليه : الخطط وسأعتمد هذه الطبعة .

نفوذه فحسب على بلاد سوريا وجزء عظيم من مملكة فارس القديمة ، فقد كان هناك أمر آخر ذلك أن شعبًا ... قد استطاع بما له من قوة وبأس أن ينفذ إلى الولايات المسيحية وأن يوطد سلطانه بين أنصار دين زرادشت»[1] .

والموالي « هم المسلمون من غير العرب »[2] ، وقد ساوى الإسلام بينهم وبين المسلمين العرب في الحقوق والواجبات : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وكانت سياسة الرسول ﷺ تقوم على مبدأ المساواة فكان يؤكد أنه : « لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى» ويستشهد دائمًا في معاملته بقوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب : ٥] وقد ثبت الرسول المساواة بين المسلمين في أسمى الدرجات كان يؤكد : « كلكم لآدم وآدم من تراب» .

وكذلك التزم أبو بكر ﷺ بمبدأ المساواة وقد تجلى ذلك في توزيع العطاء بالتساوي « وقد سوى بين الناس في القسم »[3] .

وكذلك سوى عمر بن الخطاب بين المسلمين في الحقوق والواجبات وكان التمايز في العطاء بينهم على قدر أهميتهم في الدفاع عن الإسلام وسبقهم في الدخول فيه فكان يقول : «لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه »[4] .

ولما قسم عمر العطاء جعل حصة العربي المسلم وحصة مولاه واحدة فرض « لكل رجل منهم... في كل سنة حليفهم ومولاهم معهم سواء

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية الترجمة ص ١٥ .

(٢) فلهاوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٢١ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣٧ ، تعليق رضوان محمد رضوان..... المصرية القاهرة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١م وسأعتمد هذه الطبعة وهي الأولى .

(٤) المصدر السابق ص ٤٣٧ وأبو يوسف : الخراج ص ٥٠ المبطعة ..... .

بسواء »[1] .

وكان عدد الموالي في هذا الوقت محدودًا[2]، وقد اتبع عمر بن الخطاب هذه السياسة التي تقوم على العدالة والمساواة فإنه لما جاءت بنو عدي ومعهم عشيرته وقالوا له : «أنت خليفة رسول الله ﷺ وخليفة أبي بكر وأبو بكر خليفة رسول الله ﷺ فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم كتبوا »[3] غضب عمر وقال لهم : « بخ بخ بني عدي أردتم الأكل بين ظهري وأن أهب حسناتي لكم ... والله لئن جاءت الأعاجم بعمل وجئنا بعمل لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فإن من قصر به عمله لم يسرع له نسبه »[4] .

وقد عمل عمر بن الخطاب من أجل تثبيت المساواة واحترام المسلمين من غير العرب فقد «قدم صهيب الرومي على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس »[5] وقال موضحًا رغبته في ترسيخ سالم وهو مولى للخلافة بقوله : «لو أدرك سالما مولى أبي حذيفة لما شككت فيه »[6] . وكان عمر ﷺ يكتب إلى الولاة وأمراء الأجناد لتطبيق المساواة بين المسلمين فكتب مرة « من أعتقتم من الحمراء[7] فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم وأن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم في العطاء»[8] وقد وافق عمر ﷺ على إدخال فريق من الموالي في الجيش كما وافق على شروطهم التي قالوا فيها : « أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا

(١) فتوح البلدان : ص ٤٣٧ .
(٢) انظر السيادة العربية ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣٦ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٣٦ .
(٥) الألوسي : بلوغ الأرب ج١ ص ١٧١ .
(٦) المصدر السابق ج١ ص ١٧١ .
(٧) الحمراء هم الموالي وغير العرب بوجه عام وكان العرب يسمونهم الموالي الحمراء ، انظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد العاشر ص ٤٤١ .
(٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٤٤ .

بذلك الأمر الذي بعثكم »[1] .

وكانت معاملة عثمان بن عفان ﷺ امتدادًا لمعاملة عمر واستمرت هذه المعاملة الطيبة بل زادت في خلافة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وقد أخذت مشكلة الموالي تظهر في عهد الدولة الأموية حيث تزايد عددهم واستقروا في المدن، وكان معظمهم لا يأخذون العطاء[2] مع أنهم « كانوا يرون أن العطاء إنما هو حق لجميع المسلمين »[3] ، وكانت حالة الموالي الاقتصادية والاجتماعية متباينة فهناك أصحاب المهن وهي على أنواع ودرجات وهناك الدهاقين « الذين أصبح العطاء وقفًا عليهم »[4] وكتاب الدواوين ، حيث « ظلت الأعمال الكتابية بأيدي العمال المحليين وفي اللغتين الفارسية واليونانية ولم يبدأ استعمال اللغة العربية إلا في نهاية القرن الأول الهجري»[5] وإلى جانب هؤلاء المحدثين والفقهاء والشعراء ، وكانت الدولة إليهم لا تتناسب وأهميتهم الثقافية والدينية والاقتصادية[6] ، لكن نظرة الدولة الأموية إلى الموالي واحدة وعلى هذا لا يمكن قبول بعض المؤرخين التي ذهبت إلى القول بأن موقف الدولة كان قاسيًا للموالي وأنهم كانوا ينظرون إليهم نظرة احتقار »[7] فإن إطلاق مثل هذه الأحكام العامة يحتاج إلى إعادة النظر ويعتبر بعيدًا عن الواقع .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦٦ .

(٢) صالح أحمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٦٤ ـ ٦٥ ، مطبعة المعارف بغداد سنة ١٩٥٣ .

(٣) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٥) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٦ .

(٦) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص ٧٧ الطبعة الأولى .

(7) Oleary, Arabic Thought and its place History , p . 89 . « New York 1936 .

وفي العصر العباسي الأول تحسنت حالة الموالي وأصبحت مساوية للعرب وقد تزيد أحيانًا [١] ، وأعلن الخلفاء العباسيون بأنهم جاءوا سنة الرسول وأن حكمهم ديني لا ملك دنيوي [٢] .

أما ما يتعلق بالضرائب فإننا نستطيع أن نقرر حقيقة أولية هي أن الجزية والخراج قد فرضتا على غير المسلمين ، ولم تفرض على الموالي ، إلا أن أسيء استعمالها في فترات معينة محدودة .

قد نظم عمر بن الخطاب الضرائب ووقف على ما كان متبعًا من الأنظمة فجعلها أساسًا لتنظيماته، ففي العراق وإيران (لم يخالف عمر ... مع كسرى على جربان [٣] الأرض .. والجماجم وألغى ما كان كسرى كان معايش الناس) [٤] ولهذا اعتبر دانيت نظام الضرائب العربي (في جوهره هو نفسه ما كان من نظام الضرائب عند الفرس) [٥] ويؤيد ليفي ... « levy» ذلك بقوله: (وقد والى عمر العمل بنظام كسرى أنو شروان بصفة عامة) [٦] .

ولم تفرض الضرائب في منطقة خراسان بطريقة منظمة حيث لم يفرق بين ضريبة الخراج وضريبة الجزية بل كانت قد عقدت معاهدات صلح تدفع بموجبها كل مدينة القدر المتفق عليه إلى الدولة فأهل طبسين [٧] مثلا صالحوا عمر بن الخطاب على ستين ألفا ويقال خمسة وسبعين ألفا [٨] ،

---

(١) انظر الآثار الباقية ص ٢١٣ والجذور التاريخية للشعوبية ص ٣ .

(2) Hitti, History of the Arabs, p . 288 (London , 1937) .

(٣) جربان جمع جريب وهو مساحة من الأرض تبلغ ٣٦٠٠ ذراع حكام السلطانية ص ١٧٩ .

(٤) الطبري : ج٢ ص ١٢٣ الطبعة الحسينية .

(٥) دانيت : الجزية والإسلام الترجمة العربية ص ٤٦ .

(٦) تراث فارس : مقالة فارس والعرب ص ٩٥ .

(٧) طبسين مدينة من مدن خراسان ، انظر الأعلاق النفيسة ص ١٠٥ طبعة ليدن سنة ١٨٩١ .

(٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٩٤ .

واستمرت هذه الطريقة متبعة في منطقة خراسان إبان خلافة عثمان (الذي أقر صلح الطبسين)[1] وصالح مدينة نسا [2] على ثلاثمائة ألف درهم ويقال على احتمال الأرض من الخراج)[3] والطبري يذكر معاهدات الصلح هذه التي استمرت طوال أيام الراشدين والأمويين والعباسيين [4] ، وقد حاول نصر بن سيار والي الأمويين على خراسان معالجة مشكلة الضرائب فعمد إلى التفريق بين ضريبتي الجزية والخراج وجرد الدهاقين من كثير من امتيازاتهم [5] ، إلا أن إصلاحات نصر كانت مؤقتة حيث عادت مشكلة الضرائب إلى ما كانت عليه سابقًا [6] .

ومما زاد في مشكلة الضرائب في خراسان تعقيدًا أن الدهاقين قد تولوا أمر جمعها ، وكان المفروض أن المبالغ المتصالح عليها مع المدن تجمع من غير المسلمين ، إلا أن الدهاقين كانوا يجبونها من جميع السكان مسلمين وغير مسلمين ، من أجل جمع أكبر مقدار ممكن من المال ، وأداء المبلغ المتفق عليه بالزيادات المتجمعة[7] . ولقد ولدت هذه الإجراءات رد فعل عند الموالي في خراسان وكانت عاملاً لإثارة الاستياء والحقد على الحكم العربي الذي استغلته الشعوبية استغلالاً كبيرًا .

أما في العراق والشام فقد استمرت تنظيمات عمر بن الخطاب على ما عليه من قبل ولم يطرأ عليها تغير إلا في خلافة عبد الملك بن مراون حيث وضع عامله الحجاج بن يوسف الثقفي (الخراج على العرب الذين اقتنوا

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤ .

(٢) نسا مدينة من مدن خراسان ، انظر الأعلاق النفيسة ص ١٠٥ ، طبعة ليدن .

(٣) فتوح البلدان ص ٣٩٤ .

(٤) انظر الطبري ج ٤ ص ١٥٠ ـ ١٥٢ الطبعة الحسينية .

(5) Wellhausen, Arabi Kingdom and its Fall, p . 283 (Calcutta University Press, 1927) .

(٦) انظر الخراج لأبي يوسف ص ٣٣ ـ ٥٠ .

(٧) انظر الجزية والإسلام الترجمة ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

أراضي خراجية وفرض الجزية والخراج على الأعاجم الذين أسلموا [١] ، وطلب الحجاج من جميع الذين نزحوا من قراهم العودة إليها فعادوا إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها) [٢] ، لقد أثارت هذه الإجراءات رد فعل عند العرب والموالي الذين مستهم ونادوا بأنها إجراءات تنافي الإسلام [٣] .

قد عالج عمر بن عبد العزيز هذه الناحية معالجة سليمة فقرر (أن الخراج إيجار للأرض وقال بأن الأرض الخراج كانت أولاً ملكًا مشتركًا بين المسلمين وأنها تركت بيد المغلوبين يزرعونها لقاء إيجار يدفعونه للأمة وهو الخراج) [٤] وألغى عمر الثاني (الجزية عمن أسلم من أهل الذمة) [٥]

وإذا نظرنا إلى الضرائب فإننا نرى أنها لم تكن منظمة تنظيمًا دقيقًا فإن عمر بن الخطاب لم يضع نظامًا ثابتًا لها [٦] فالخراج فرض على غير المسلمين فترة ثم أصبح إيجارًا للأرض يدفعه المسلم وغير المسلم، والجزية فرضت على غير المسلمين إلا أن الحجاج فرضها فترة على الموالي ، وفي خراسان لم تكن سوى ضريبة واحدة تدفع نقدًا [٧] فأعطت هذه الوضعية مجالاً لإثارة التذمر والحقد على الدولة العربية ، وإذا ذكرنا أن الضرائب في أيام آل ساسان كانت رمزًا للهوان والذلة وأنها كانت ترفع عن الطبقات العليا من (أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهرابذة [٨] والكتاب ومن كان في خدمة

(١) الدوري : النظم الإسلامية ص ١٤٦ الطبعة الأولى بغداد ١٩٥٠ م .

(٢) الطبري : ج٢ ص ٣٥ الطبعة الحسينية .

(٣) الدوري : النظم الإسلامية ص ١٤٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٤٧ .

(٥) المقريزي : الخطط ج٢ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ طبعة بولاق .

(٦) فان فلوتن : السيادة العربية الترجمة ص ٢٧ .

(٧) فان فلوتن : السيادة العربية الترجمة ص ٤٩ .

(٨) الطبري : ج٢ ص ١٥٠٧ (طبعة ليدن) سنة ١٨٧٩ ـ ١٨٨١م .

الملك) [1] ، وأنها كانت تفرض على طبقة العامة فهي لهذا (سمة للذل وعنوان للوضاعة الاجتماعية) [2] . إذا ذكرنا هذا كله أدركنا ما كانت تولده الضرائب غير المحدودة في خراسان من استياء وكيف أن الشعوبيين وجدوا في إجراءات الحجاج مادة لإثارة الحقد وإذكاء روح التحدي عند الموالي في وجه النفوذ العربي .

إن نظرة إلى ما ذكرنا لترينا أن هناك عوامل عدة قد تفاعلت مع بعضها البعض في إثارة الحركة الشعوبية ، ولما كانت الشعوبية تمثل التحدي في أجلى مظاهره فإننا نستطيع أن نميز بين نوعين من عوامل هذا التحدي ، نوع يثير وعيًا وثقة وآخر يثير حقدًا وكراهية وعلى هذا فالشعوبية هي مجموعة لهذه المواقف التي تقوم على العداء والتحدي والتي كان يثيرها الوعي حينا فتراها منظمة تسلك سبيلاً مدروسًا فهي على حد تعبير أحد الشعوبيين رفض في الظاهر ما بيننا من العداوة ونظهر موافقتهم ومساعدتهم وندخل دين محمد ونؤمن به ثم نفسد عليهم دينهم بلطيف الحيل وندرك منهم ما لم يمكن إدراكه بالقهر والغلبة) [3] ، ومواقف يثيرها الحقد والكراهية هي مواقف منفعلة متعصبة غير منظمة تكيل التهم جزافًا (وتدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بهم كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الذم وتبهت الكفر وتكابر العيان) [4] .

* * *

(١) الهرابذة جمع هربذ والهربذ رئيس سدنة بيت النار عند المجوس وقد يكون من حكامهم ، انظر البيان والتبيين ج٣ ص١٠ الحاشية تحقيق السندوبي .

(٢) دانيت : الجزية والإسلام ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٣) العراقي : الفرق المفترقة بين أهل الزيغ والزندقة ص ١٠٠ ، بشار قوتلواي ، أنقرة ، طبعة ١٩٦١م وسأشير إليه: الفرق المفترقة معتمد هذه الطبعة .

(٤) كرد علي : رسائل البلغاء ، كتاب العرب ص ٣٤٤ الطبعة الرابعة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م . وسأشير رسائل البلغاء وسأعتمد هذه الطبعة .